نداء الأمكنة.. مكر التاريخ أو الهويّات الخلاّقة

قراءة في رواية "موانئ المشرق"[1] لأمين معلوف

بنعيسى بوحمالة

مثلما هو الشأن في الآداب و الثقافات العالمية، و منذ قرون خلت، لم يسلم الأدب العربي الحديث من سمات التداخل و التعدّدية، إن لم نقل الهجانة، و ذلك بموجب قنوات من التفاعل، سافرة أو مستضمرة، انبسطت في اتجاه لغات و آداب و ثقافات أخرى ما كان لها سوى أن تثمر، شئنا أم كرهنا، نوعا من قيمة مضافة في الحقل الأدبي العربي بأثر من حركيّة الذهاب و الإياب بين الجذر اللغوي و الأدبي و الثقافي العربي و بين مرجعيات مختلفة انوجدت جموع من الكتّاب و المبدعين العرب المحدثين منشدّة إليها، كلّ و حيثياته المتعيّنة، و فاعلة، بالتالي، في مشهدنا الأدبي من هذا الموقع، تحديدا، كتابة و تخييلا و تمثّلا و رؤية. قد تتراوح التّوصيفات بين مسمّى الفرانكوفونيّين أو الأنجلوفونيّين أو الجرمانوفيّين..؛ تماما على نحو ما كان من تأجّج السّجال الفكري و الإيديولوجي، بخاصّة في دول المغرب العربي، في مطالع الاستقلالات الوطنية حول شرعية هذه الظاهرة و مبرّر استمرارها بعد تقوّض الاستعمار، و ما انفرز عنه، أي السّجال، من تموقفات متراكبة حادّة توزّعت، كما نعلم، بين تخوين هذه الفئة من الكتّاب و المبدعين من لدن هيئات سياسية أورثذوكسية بحكم تبعيّتها اللغوية العدميّة للمستعمر و بين قرار المبدع الجزائري مالك حدّاد، كمثال، التوقّف نهائيا عن الكتابة ما دام قد أخفق في التحوّل من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية معتبرا الأمر بمثابة إعاقة رمزية دالّة لا تغتفر، انتهاء إلى وجهة أخرى، لربّما أكثر جرأة، عدّت لغة المستعمر كما لو كانت غنيمة حرب لا ضير في تملّكها و تسخيرها في تصفيّة الحساب، تاريخيا و ثقافيا، مع ضمير غربي مثقل بجريرته الاستعمارية اللاّتمحى.

و إذن غدا، و الحالة هذه، من باب الاعتياد و الإلفة، إن لم نقل أمرا واقعا، أن نستحضر، على سبيل القصد أو التداعي، أسماء كتّاب و مبدعين عرب، شعراء و روائيّين و قصّاصين و مسرحيّين، ممّن شاء لهم الماضي الاستعماري أو تلاوين قدرهم الشخصي، يكتبون و يتخيّلون بلغات أروبية غير اللغة العربية و استقطعوا حضورهم الاعتباري، بهذه الدرجة أو تلك، مقروئية و ترجمة و احتفاء و جوائز..؛ ممّا يجعل من أيّا تساؤل حول موجوديّتهم الفعلية مضيعة للوقت و ارتدادا تحليليا، ليس إلاّ، إلى الوراء سيما مع الزّلزلة الهائلة التي يعرفها العالم راهنا في ظل إيديولوجيا العولمة التي لا تني تكتسح اللغات و الثقافات القومية فأحرى الوطنيّات و المحليّات الضيقة. كذا نستحضر أسماء كلّ من أحمد الصفريوي و إدريس الشرايبي و كمال الزبدي و عبد الكبير الخطيبي و عبد اللطيف اللعبي و مصطفى التّيسابوري و الطاهر بنجلون

[1]- ترجمة: نهلة بيضون، دار الفارابي، بيروت – الدار الوطنية للاتصال و النشر و الإشهار، الجزائر 2001.

و عبد المجيد بنجلون و إدمون عمران المالح و غيثة الخياط و عبد الحق سرحان و فؤاد العروي و محمد حمّودان و رجاء بشمسي و عبد الله الطائع..؛ من المغرب، و كاتب ياسين و مولود معمّري و محمد ديب و آسيا جبّار و رشيد بوجدرة و مالك حدّاد و ياسمينة خضرا و الطاهر جاووث..؛ من الجزائر، و عبد الوهاب مؤدّب و ألبير ميمي و الطاهر بكري..؛ من تونس، و خالد مطاوع..؛ من ليبيا، و ألبير قصيري و أندريه شديد و جويس منصور و أهداف سويف و سميّة رمضان..؛ من مصر، و جمال محجوب..؛ من السودان، و جورج شحاذة و صلاح ستيتيّه و أمين معلوف و ناديا تويني و إيتيل عدنان..؛ من لبنان، و عادل قرشولي..؛ من سوريا، و محمد دهّام..؛ من السعودية، بوصفها أسماء مكرّسة أثبتت مصداقيتها الإبداعية عبر اللغات الفرنسية و الإنجليزية و الألمانية.. هذا عدا أسماء أخرى جديدة، تقيم أساسا بمختلف المهاجر الأروبية، تمارس الكتابة بالإسبانية أو الإيطالية أو الهولاندية أو النّرويجية أو البلغارية..؛ و أخرى تقيم في المهاجر الآسيوية و تمارس، من جهتها، الكتابة بالصينية و الكورية، مثلا.

أكيد أنّ قسما من منجز هؤلاء، الرّواد في المقام الأول، لم يسلم من مطبّات الانبهار الاستلاب و الفلكرة.. ممّا قد لا يسلم منه أيّا أدب يكتب في تلابيب المعادلة التاريخية المجحفة: قويّ / ضعيف، متقدّم / متخلّف، و قسما آخر سيصدر عن أطروحة تعنيف اللغة الكولونيالية كضرب من الانتقام الرمزي من سطوة الغرب و جبروته، على شاكلة ما اعتنقه عبد الكبير الخطيبي و باشره في أعماله، لكن الملمح الشامل، إن شئنا، لمعظم النصوص، الروائية على نحو بارز، الآيلة إلى هذا التّطاق لهو، دونما مواربة، وعي / لاوعي الاقتلاع و التّفي و التوزّع المأساوي بين فضائين و ثقافتين، الشيء الذي يتصل، بقوة الأشياء، بحادث مفصلي اعترض حيوات و سير كتّاب و مبدعي هذه النصوص، فعلي أو افتراضي لا فرق، هو الهجرة، و النّتيجة فيالما "تلقي تجربة التّفي بظلالها على الإنسان المنفيّ فترسم له صورة كائن منبوذ دائما يحيا في زمان و مكان غريبين عنه، و إلى جوار بشر يلفظونه و لا يألفهم. من هنا تتجلّى علاقة الذات بالهويّة، و الأنا بالآخر في عدد غير قليل من قطاعات الرواية العربية، و بطرائق جمالية و ثقافية متعدّدة، مثل روايات المنفى، و روايات الغربة، و روايات الشرق و الغرب، و روايات صراع الحضارات"[2]، بتعبير رديف، و بوجه عامّ كذلك "فإن كان هناك من مشكل خليق بالتّدقيق في أدب المهاجرين فهو لا يكاد يحيد عن استلابه لأغلبيّة مؤلّفيه، بمعنى أنّ الحياة الحقيقية توجد هنالك"[3].

على أنّ تركيزنا على هذا الشقّ من الإبداع الذي يباشره كتّاب و مبدعون عرب بلغات أروبية، و في حدود ما بلغات آسيوية، لا يعفي على معطى، لا محالة أقدم في الحقل الأدبي العربي الحديث، اختيار أفواج من الكتّاب و المبدعين العرب تحرير أعمالهم الإبداعية باللغة العربية، بدءا برعيل "الرابطة القلميّة" في الولايات المتحدة و "العصبة الأندلسيّة" في أمريكا الجنوبية، و الشاعر السوري الرومنتيكي عبد الباسط الصوفي الذي أقام لردح من الزمن، كديبّلوماسي، في غانا،

[2]– محمد الشحات : ما بعد المنفى، المفاهيم و الأنواع و الهويّات، ضمن "الثقافة العربية في المهجر"، ج 1، سلسلة "كتاب العربي"، ع 90، الكويت، أكتوبر 2012، ص 215.

[3] - Fouad Laroui : Etre soi – même ou jouer un rôle : le dilemme de l'écrivain migrant, in Le Magazine littéraire du Maroc, Numéro hors – série, dossier (Les écrivains de la diaspora marocaine), Eté 2010, p. 104

و وصولا إلى سائر موجات الأدباء العرب المغتربين، في اطّرادها الملموس عقدا بعد عقد، و اتخاذها، مع الزمن، حجما متضخّما يصحّ نعته بالشّتات الأدبي العربي.. من الشاعر السوري نزار قباني بإسبانيا و الروائي العراقي غائب طعمة فرمان في الاتحاد السوفياتي.. إلى الشاعر و الروائي المغربي محمد ميلود غرافي في فرنسا و الشاعرة السورية مرح البقاعي بالولايات المتحدة.. إلى حدّ يمكن معه القول بأن قسطا لا يستهان به من النّشاطية الإبداعية بلغة الضّاد تمّ و يتمّ، حاليا، في المغتربات الأروبية و الأمريكية و الآسيوية.

نخلص من هذا إلى القول، في مرمى تشخيص علاقة الكتابة بالهجرة، بأن المسألة لتنحو وجهات متباينة و لو أنها تنصبّ، في المحصّلة، في بؤرة واحدة. نقصد أنه بقدر ما تكون هناك هجرة صوب مكان متعيّن، بمحموله اللغوي و التاريخي، في انقطاع عن مسقط الرّأس، لغة و ثقافة، قد تحصل هجرة موازية لا تفرّط في الذاكرة و مختلف الأرصدة اللغوية و الثقافية و يمسي معها مكان الاستقبال محض حديقة خلفيّة للمكان الأصلي، و في مقابل هذه و تلك فقد لا يحوج المبدع التزحزح عن مسقط رأسه ليخوض هجرته الرمزية إلى لغة و ثقافة، بله متخيّل، مكان آخر سيّان كان دانيّا جغرافيا أو اشتطّ نأيه. نسطّر على هذا و ذلك حتى نتبيّن الوضعية، المخصوصة ما في ذلك شك، للروائي اللبناني أمين معلوف الذي، إن عبر مشروعه الروائي الرّصين و الجاذب الذي يشدّ بعضه برقاب البعض الآخر أو من خلل كتاباته الفكرية[4] أو حواراته الصحفية، ينطلق من تمثّلات بعيدة الشّأو لماهيّات اللغة و الثقافة و، بالتّبعية، لماهيّات المكان و التاريخ و العقيدة و الهويّة.. الإنسان و الحضارة و المصير.

و إذن، و في تواشج مع التّمفصل العلائقي للذات الكاتبة مع المكان و اللغة و الثقافة، محطّ الهجرة، و في حالة أمين معلوف، تحديدا، و كيما نكون أوفى وضوحا، نقول بأنّنا تقصّدنا تقصّدا الاشتغال على رواية لكاتب يمارس، عن اختيار و اقتناع، الكتابة باللغة الفرنسية، الشيء الذي قد يرخي بعض التشوّش على مدى انصباب هذه القصديّة في العنوان المركزي النّاظم لهواجس هذه الندوة، و المتّصل، بوضوح ، بموضوع الهجرة في الأدب العربي الحديث، ممّا قد ينطرح معه تساؤل مشروع، ما في ذلك ريب، عن محلّ إعراب كاتب فرانكوفوني، وفقا للصّنافة النقدية و الإعلامية المكرّسة منذ عقود خلت، في سياق ندوة تنكبّ، أساسا، على موضوع يواظف في النص الأدبي الحديث المصوغ باللغة العربية.

لنقل إنّ الإلماع أعلاه لمّا يليق كعتبة حاسمة و دالّة إلى مضمار الهجرة و تداعياتها، سيّان في تحليل أمين معلوف أو في إطار مشروعه الروائي بعامّة، أو في رواية "موانئ المشرق" بوجه خاص؛ ذلك أنّنا و نحن نستحضر رفضه للتّشدّد اللغوي، و ضمنيّا للانغلاق الهويّاتي، و إيمانه، على العكس، بتعدّدية الهويّة و تراكبها و انفتاحها.. فلن يعسر علينا، و الحالة

[4]– نذكر من أعماله: "الحروب الصليبية كما رآها العرب" (عرض تاريخي) 1983، "ليون الإفريقي"، 1984، "سمرقند"، 1986، "حدائق النّور"، 1991، "القرن الأول بعد بياتريس"، 1992، "صخرة طانيوس"، 1993 (التي نال عنها جائزة الغونكور الفرنسية الرّفيعة في نفس السنة)، "موانئ المشرق"، 1996، "رحلة بالدسار"، 2000، "الحبّ عن بعد" (مسرحية شعرية) 2001، "الهويّات القاتلة" (مقالات سياسية) 1998 و 2002، "بدايات" (سيرة عائلية) 2004، "الأمّ أدريانا" (مسرحية شعرية) 2006، "خلل العالم" (مقالات سياسية) 2009، "التّائهون"، 2012.

هذه، استيعاب لماذا لم يضره في شيء، هو من يجيد التّعبير باللغتين، العربية و الفرنسية، أن يتّخذ، مثلا، اللغة العربية أداة شغله الصحفي و هو ساعتها بلبنان تماما كما عدم تحرّجه لا نفسيّا و لا ثقافيا، حين حطّ الرّحال بفرنسا، إثر اندلاع الحرب الأهلية بلبنان، أن يتوسّل، في إطار شغله الصحفي دائما، و هذه المرّة بمجلة "إفريقيا الفتاة"، باللغة الفرنسية ثم أن يطلق العنان، توازيا مع هذا، لآلته السردية الهادرة بهذه اللغة بالذات، و لربّما كان واردا، انطلاقا من تحليله لمسألة اللغة، لو اقتاده مصيره الشخصي إلى بلد مغاير، كفيلّندة أو منغوليا، و كانت لديه دراية بلغة البلدين، لفعل نفس الصّنيع، هو العربي.. اللبناني.. المسيحي.. النّاطق باللغة العربية.. و ذلك انسجاما مع اعتناقاته الجازمة في هذا الباب. هذا، و لأنّ شخصياته الروائية لا تتعدّى كونها تنوب منابه في فضاء الرواية حسبنا أن نتأمّل ضمن الرواية موضع التحليل، على سبيل التّنويه، في واقعة مراسلة كلارا (لنلاحظ حمولة الضوء و الائتلاق في التسميّة)، حبيبة و زوجة عصيان (و لنلاحظ رمزية التّمرد و الاعتداد بالذات في التسميّة)، بطل الرواية، حين مراسلتها إيّاه بحيث "كتبت له رسالة بعد شهرين في سبع أو ثماني صفحات بالألمانية رغم أنها تجيد نسبيّا الفرنسية.. كتبت له بصيغة الاحترام.. و لكنها ترتاح في الكتابة بلغة غوته أكثر من لغة شاتوبريان".. هي النّمساوية، اليهودية، التي فقدت معظم أفراد عائلتها في غضون حرب الإبادة التي شنّتها النازية على اليهود.. هي من تعرّف عليها، نقصد عصيان، في أثناء انضوائهما معا إلى صفّ المقاومة الفرنسية للاحتلال النّازي.. رغما من هذا لسوف تمتلك شجاعة الفصل بين اللغة و بين الجلاّد.. بين رشاقة غوته و عنفوان هتلر.. مهاجرة، هكذا وبسلاسة، من لهجة اليديش، بما هي لسان أسلافها اليهود في أروبا الوسطى، إلى حوزة اللّسان الألماني.. أو ليس هذا ما كان عاشه الشاعر الكبير بول سيلان من مفارقيّة قاسيّة بإزاء اللغة الألمانية، لغة جلاّدي شعبه، اللغة التي رضع، مثلما يقول، عذوبتها الاستعاريّة مع حليب أمّه ؟

يكفينا، إذن، أن نتأمّل في هذه الواقعة الحكائية و نتقرّاها، بعد ذلك في العديد من تصريحاته و إدلاءاته الصحفية التي تجلو هذه النقطة، بل و تجعلها بمثابة أحد مواثيق التّعاطي مع مشروعه الروائي. كذا، و ردّا على سؤال كالتالي: هل يزعجك أن تسمّى كاتبا فرنكوفونيّا ؟ سيقول: "كلمة فرنكوفونيّة لا أحبّها، و الأهمّ في نظري هو المضمون الذي يأتي به الكاتب. إنّني أتصوّر أنّ استعمال كلمة فرنكوفونيّة ليس واضحا. و عندما يقال لي إنّني كاتب فرنكوفوني لا أنفعل، لا أقول لا و لا أقول نعم. هذا التعبير لا أستخدمه و لا يأتيني تلقائيّا. في اللغة الإنجليزية، مثلا، إذا كان الكاتب من نيجيريا أو أوستراليا أو الهند لا يسمّى أنجلوفونيّا، و الأمر نفسه في اللغة الإسبانية، سواء كان الكاتب من كولومبيا أو إسبانيا أو الأرجنتين و سواها. في اللغة الفرنسية صفة كاتب "فرنكوفوني" أجدها تؤدّي إلى نتيجة تخالف النتيجة المقصودة منها، و هي أن تميّز بين كاتب فرنسي و كاتب غير فرنسي باللغة الفرنسية. و عوض أن يجمعوا الكتّاب الذين يعبّرون بالفرنسية يفصلون بينهم، و لهذا أعتبر أن تعبير "الفرنكوفونيّة" غير موفّق"[5]. و تعميقا لهذا الطرح، و في إجابته عن سؤال آخر قريب جاء على هذا النّحو: ألا تعتقد أنّ وصفك بالكاتب اللبناني الذي يكتب بالفرنسية ممكن مثلك مثل جورج شحاذة و ناديا تويني و صلاح ستيتيّه، خصوصا أنك تقول إنّ العربية هي لغتك الأمّ ؟ هل أنت كاتب فرنسي أم كاتب لبناني

[5]– عبده وازن: أمين معلوف.. العابر التّخوم، سلسلة "كتاب دبيّ الثقافية"، ع 60، دبيّ، أبريل 2012، ص 49.

بالفرنسية ؟ سيردّ قائلا: "شعوري العفوي، قبل أن أفكّر بالأمر، هو أنّني كاتب لبناني. هذا شعوري الأوّل، و لكن بعد التّصنيفات يختلف الأمر. اللغة العربية هي لغتي الأمّ، و ليست فقطّ لغة أمّا، فأنا بدأت الكتابة بالعربية و بها استهللت حياتي المهنيّة. و ربّما لو بقيت في لبنان أو لأقل لو لم تحصل الحرب لما هجرت لبنان، هذا أمر أكيد، ما كان لي حتى أن أفكّر بالهجرة"[6]. هذا، و إذا كان لنا أن نستزيد شيئا بصدد هذه النقطة يبقى علينا أن نتدبّر، على سبيل المثال، ولعه بالموسيقى و توزيع اهتمامه، المنتظم، بين السّرد و الموسيقى، هذه الأخيرة بوصفها لغة كونية متعالية على وضعية التّشظي اللغوي، أو لعنة برج بابل، التي اكتنفت تاريخ البشرية و فاقمت استيهاماتها المحليّة، بله الشوفينيّة مرارا، و بهذا فهو يتقاطع، بشكل أو بآخر، مع عين التفكير الذي استبدّ بشارل بودلير، الأب الروحي للحداثة الشعرية، عندما وجد، هو الولوع بموسيقى الألماني ريشارد فاغنر ولعه بلوحات الرّسام الانطباعي الفرنسي كلود مونيه، في اللغة الموسيقية، و معها اللغة التشكيلية، مفتاح أيقنة اللغة الشعريةن كمالها، و ارتقائها إلى حداثتها.. كونيّتها المرجأة.

بالمناسبة، و على ذكر الموسيقى، أفليس دالاّ أن تقوم مقام شاغل حيوي في تفكير و حياة المفكر إدوارد سعيد، أحد أبلغ المنظّرين لقضايا اللغة و الثقافة و الهويّة و المنفى..؛ و أن يتموقع أمين معلوف، بالتالي، في نفس مدار رؤيته المنفتحة لإشكالية الهويّة و التفاعل الحضاري، بعيدا عن أصوليّة كلّ من صامويل هنتنغتون و برنار لويس، و أن ينذر شخوصه برمّتهم لمآلات انتقاليّة بين هذا المكان و ذاك.. بين هذه اللغة و تلك.. بأثر من دافعيّة تاريخية ماحقة تمكر بهم و تطوّح بهم في الآفاق و الأرجاء لكنها تستجلب لهم، جزاء اقتلاعهم القسري، غالبا، من مساقط الرّأس، اغتناء هويّاتيا و وجدانا متراحبا تمسي معه جذورهم محض منطلق لمسلسل أو سيرورة بناء موجوديّتهم الإنسانية الأصيلة و المستحقّة.

و لعلّه ليس أبلغ من مآل بطل روايته "ليون الإفريقي"، أبي الحسن الوزّان الفاسي، إن نحن وددنا تلمّس البّورتريهات التي وضّبها لمعظم شخوصه. فإذ أسر أبو الحسن من لدن الصّليبيّين اقتيد إلى روما و لقّن مبادئ المسيحية و ألحق بخدمة البابويّة.. أمّا اسمه فغدا ليون الإفريقي.. هو الأندلسي.. الذي عرفته فاس و اجتاز قسما من الصحراء الإفريقية الكبرى بغيته تومبتكو، الحاضرة الأسطورية.. و دوّن مشاهداته في مصنّفه الذّائع الصّيت "وصف إفريقيا". و عليه، و على شاكلة أبي الحسن، ما كان لتصاريف تاريخ ضار، اتخذ عنوان حرب أهلية في لبنان، الفسيفساء الإثنية و العقدية و اللغوية، الرّخوة أصلا، سيلقى أمين معلوف نفسه حازما أمتعه في اتجاه فرنسا.. صوب الميتروبّول.. و من ثمّ أفلسنا في صميم أمثولة السّن بالسّن و الرّمح بالرّمح.. بمعنى أليس من حقّ من استضفته، و لو كمحتلّ، لفترة ، أن يترقّب، هو الآخر، استضافتك له، لكن كنازح فرارا من سعير حرب ضروس و باحث، كمبدع، عن أفق أرحم للملمة الجراح و اصطناعها مادّة للتّخييل و الكتابة. من هنا لا غرابة في أن يتصادى جزء من الرواية، موضوع المقاربة، مع لحظات من سيرة أمين معلوف، بخاصّة ما كان من إقامة عصيان بفرنسا في أثناء الحرب العالميّة الثانية ثم عودته، ثانية إلى فرنسا، في نفس

[6]- نفسه، ص 43.

ميقات وصول المؤلّف، ناهينا عن تصميمه على جعل السّارد الثاني في الرواية صحفيّا يقيم في باريس بما يحيل على المؤلّف من غير ما التباس.

من هذا الضوء نقول و أمين معلوف يسخّر تقنية المحاورة، بما هي تقنيّة صحفية بامتياز، و يزجّ بصحفي متخيّل، فطن و احترافي، في طريق عصيان الخائب، المدمّر، و المأساوي، إلى تلك البرهة الفارقة و الاختتامية في الرواية، و حيث سيلتقي حبيبته / زوجته كلارا في مكان و ميقات مسطّرين وفقا لمزاج تاريخ يملي مشيئته المتغطرسة على الأفراد، كما الجموع، و أين ؟ في باريس التي تتوطّن كيانه توطّنها لكيان المؤلّف، المحاورة التي ستستغرق أربعة أيام متتالية، فيما خلا توقّفات بغية التقاط الأنفاس ضمن متوالية سردية محنّكة، و تكاد تكون مقيسة بالميلّليمتر، يدبّرها الصحفي و عصيان وصولا إلى البرهة إيّاها، إنه، و هو يفعل هذا، فإنّما هو يستدمج، عن انتواء مسبق، قسطا من سيرته في مجرى الحكي و لكأنّما هو ذاك الصحفي الذي انتزع من البطل عصارة ذاكرته المشروخة، البطل بحسبانه صدى، في نفس الوقت، لهواجس المؤلّف و احتداماته و رؤاه.

لكن قبل أن يعصف التاريخ بعصيان و يدرجه، بعد لأي، في لبّ تلك البرهة كان لابدّ له أن تموضعه المصادفة الحكائية المتقصّدة في طريق الصحفي المذكور حين نزولهما معا من قطار الأنفاق الباريسي بمحطّة فولتير و أن يخبره بأنّه يبحث عن شارع يحمل اسم "هوبير هوغ" ليردّ عليه بأن عاصمة الأنوار تحفل بما يناهز تسعا و ثلاثين شارعا، أو جادّة أو ساحة، تحمل جميعها أسماء مقاومين، ثم لن يلبث أن يفيده بأنّه سبق له أن تواجد بفرنسا، من أجل دراسة الطب، في غضون الحرب العالمية الثانية، لكنه انضوى إلى صفّ المقاومة الفرنسية إفادته بأنّ أباه كان متمرّدا ضد القوانين و الأعراف و التقاليد و الدين و المال و السياسة و المدرسة.. ضدّ الغباء و الذّوق الهابط.. و كان يحلم بانقلابات عظيمة و يتماهى مع زعماء كاريزميّين كونيّين و من ثمّ رغبته في أن يصبح ابنه زعيما من هذه الطّينة، فاعلا في التاريخ و دامغا صفحته، بدلا من طبيب مغمور في مستشفى أو حتى في مصحّة خاصة. و إذ اطمأنّ عصيان لمخاطبه و شرع في بوحه الثمين.. و إذ كان يزحف، حثيثا، ميعاد تلك البرهة اللاّتوصف، بما هيّ مسدّ الرواية، لم يكن مستغربا أن ينتصب في تفكير عصيان تساؤل مرير، لا يخلو من نكهة هاملتيّة، سيقنصه الصحفي – السّارد، مؤدّاه.. "ماذا بقي له بعد أن سلب مستقبله و كرامته و حرم أبسط الأفراح، لم يبق له سوى حبّ ينتظر، حبّ هادئ و لكنه قويّ.. و ربّما أقوى من التاريخ".. فها نحن، إذن، في صميم الأفق الأثير لدي أمين معلوف، أي التاريخ، هذا و لو أنه يدقّق غرامه به على وجه الاستدراك.. "هكذا أتعامل مع التاريخ و مع الرواية، و هكذا أشعر بأنّني مرتاح في هذا التعامل معهما. لكنني لا أقول إن كلّ شخص يريد أن يتعامل مع التاريخ و الرواية يجب أن يراعي الأصول. أنا هاو للتاريخ و لديّ شغف بالرواية و أحاول أن أزاوج بينهما بطريقتي"[7].

[7]– نفسه، ص 68.

و لأنّ الأمر يتعلق بالتاريخ، بمكره بالحريّ، و لكون البرهة إيّاها التي سينفتّق عنها ذلك اللقاء الهائل بين عصيان و كلارا ثم ما كان من تبدّدهما في محبّ الغيب أو المجهول، بتصميم من المؤلّف الذي سوف يستحكم في فضول سارده الصحفي و يجعله يتورّع عن تعقّبهما، تفتّق تنامي الحكي عن زواج ابنتهما ناديا من شابّ تحبّه و هجرتها إلى البرازيل مهجرّة معها الرغبة المكينة، و الدّالة، في أن تسمّي وليدها البكر، سواء كان ذكرا أو أنثى، باسم "باكو"، اللّقب الأرميني الذي تقنّع به عصيان على مدى سني إقامته الفرنسية، و لأنّه لا هذا و لا ذاك موصول، بقوّة الأشياء، بإرهاصات أو، بالأولى، بمقدّمات، من شغل التاريخ دائما، فالظّاهر أنه من حقّنا أن نرتجع، إجرائيا، إلى الماضي، من حيث الزمن، و إلى مكان بعينه هو المشرق، و بتعبير آخر إلى من حيث انطلقت شرارات انتقالات الشخوص عبر الأمكنة و انتقالاتها، كنتيجة، إلى رحاب هويّات مغايرة ستشكّل، بلا ريب، قيمة مضافة لكينونتها، بمعنى لتفكيرها و روحها و، بالتالي، لتمثّلاتها لأمور الذات و الآخر و العالم.

كذا "كان مولده [الأمير.. أب عصيان] منذ نصف قرن على ضفاف البوسفور في غضون وقوع مأساة و انتشار موجة جنون .. عندما أبصر النّور كانت حياته قد رسمت خطوطها إلى حدّ كبير (..) عاشت إستانبول وقتها بعض الأحداث يراها البعض خطرة بينما الراوي يعتبرها تافهة (خلع السلطان و حكم عليه بالإقامة الجبريّة و تسلّم السلطة ابن أخيه).. كان يحلم بإحياء أمجاد الإمبراطورية لكنّه لم يحسن اختيار أعوانه.. خانوه.. و كانت للإمبراطور المخلوع بنت اسمها إيفيت.. كان يحبّها.. استقدم لها مدرّسين علّموها عزف البيانو و الغناء و الفرنسية و الألمانية و ملابسها كانت تأتيها من فيينّا و باريس (...) لمّا دخلت على أبيها وجدته منتحرا أو ربّما اغتيل.. و من فرط صدمتها في فقدان أبيها فقدت إيفيت صوابها إلى الأبد فلجأت أمّها إلى الطبيب الفارسي الأصل كتبدار، و قد سبق له قبل ستّة أشهر أن أنصت إليها معافاة تعزف على البيانو (...) بعد أن اقترحت الأمّ أخذ البنت إلى مونترو.. مثلا.. عاد في اليوم التالي و اقترح عليها اصطحابها إلى أضنة جنوب الأناضول حيث يملك دارا هناك و يكرّس لها حياته إلى أن تستعيد صوابها.. و بدلا من أن تترك ابنتها تحجز في مصحّ حتى توافيها المنيّة رأت أنه من الأفضل وضعها في عهدة هذا الرجل الذي يبدو أنه يحبّها و سوف يرعاها و يحميها من العار و الفضيحة". على هذا المنوال تلوح، إذن، هواية أمين معلوف للتاريخ، ففي البدء كان التاريخ، على هدي القولة الإنجيليّة السّائرة "في البدء كانت الكلمة"، و هو، في هذا الموقف، يتّخذ منحى انهيار إمبراطورية، كانت إلى عهد قريب قوّة عظمى ذات شأن و يطول نفوذها الشرق الأدنى و القسم الأوفر من حوض البحر الأبيض المتوسط، و اضطرار الفرديّات إلى تأديّة فاتورة هذا الانهيار تأديّة مأساوية، ما في ذلك شك، و انعطاف حيواتها نحو مآلات لم تكن مرتسمة في البال فالأحرى مرغوبا فيها. إنّ إيفيت ستكون مرغمة على مغادرة إستانبول إلى أضنة متكافئة، فعليّا و رمزيّا، و لو متأخرة، مع زوجها المسنّ كتبدار الذي كان غادر، أو آباؤه لا فرق، في فترة ما بلاد فارس نحو تركيا، و هكذا، "و بقدر تعلّق الأمر بالسرد العربي، فلعلّ البحث عن هويّة مرنة و جامعة يقبع وراء الانصراف إلى الكتابة التاريخية التي تمنح جزءا أوسع في حرية القول و الحركة و القصد، و ضمن هذا النّزوع المسكون بالتّرحال تندرج المدوّنة السردية لأمين معلوف؛ لما فيها من شمول في الأحداث و توسّع في حركة الشخصيات و امتثال للمعايير القيميّة التي تحملها الشخصيات الكبرى في الفضاء الإمبراطوري، و هي بمجملها سير شبه تاريخية لشخصيات معروفة جعلت من السرد وسيلة في

استعادة أفكارها و مواقفها دون أن تنقطع كلّيا عن حقيقتها التاريخية. و لعلّ تلك المدوّنة بمعظمها تندرج في إطار "التخيّل التاريخي" لتفصح عن موقف الروائي من العالم، و القيم الدينية السّائدة، و الظواهر الثقافية و السياسية، فمن وراء شخصيات التاريخ ترتسم رؤية ناقدة للتّدهور الأخلاقي و القيمي و السياسي، فكلّما تقدّم الزمن خيّم الفساد، و لابدّ من عصر إمبراطوري تشعّ فيه الأفعال الكبرى للشخصيات و تأخذ معناها الإنساني الكامل"[8]، لذا كان طبيعيّا أن تتنفّذ في مشروعه الروائي ثلاث سمات، أو ثلاثة مشخّصات بنيويّة، ".. أوّلها هوس الارتحال عند شخصياته الأساسيّة عبر العالم، و ثانيها الانتماء الثقافي المرن للشخصيات الكبرى في رواياته، و ثالثها التحوّل الدائم في الهويّات، فلا انحباس في هويّة مغلقة"[9].

هكذا، و بمجرد ما يضع الثنائي، الفارسي – التركي، المرساة في أضنة، إحدى البؤر المكانية الفارقة في المنتسج المكاني الشّامل للرواية، تبدأ التّواة الصّلبة للحكي الروائي في البروز و التّماسك، ففيها يتعايش أتراك و أرمن و يونانيّون، و حالما يرزق كتبدار و إيفيت بالأمير، أب عصيان، يحظى الأمير، باعتباره من السّلالة العثمانية، بامتياز التّحصيل المدرسي على يد مدرّسين للموادّ المختلفة يأتونه إلى ذلك المنزل الغامض و حيث ستلتئم هواجس و تتمخّض مسارات لن تفلت منها شخوص الرواية.. و لنتأمّل في بّورتريهات هؤلاء المدرّسين كيما نلتقط النّبض الذي ستسترعه في كيان الأمير جغرافيات و تواريخ و هويّات متباعدة، و عمقيّا متكاملة، نزّاعة نحو التجدّد و الطّراوة، ف "مدرّس اللغة التركية كان إماما تخلّى عن جبّته و عمامته، و مدرّس العربية يهودي من حلب طردته عائلته، و مدرّس الفرنسية بّولندي، الله وحده عليم بحاله، حطّت به عصا التّرحال في هذه المدينة الأناضولية و اسمه (واسا)"، على أنّ أكثر مدرّسيه إشاريّة في تربيّته و حياته كلتيهما هو الأرميني نوباز، مدرّس العلوم و المولع بالتصوير، الذي كان يكبره قليلا، و الذي ستتوطّد علاقته به في نادي التّصوير خصوصا و الأمير كان شغوفا بالتصوير و استقدم آلة تصوير من لايبّزغ. هذا و إذا ما كانت الصّورة واحدة من قرائن الحداثة، لا من حيث وظيفتها التوثيقية أو الجمالية، و إذا ما كانت آلة السّلطة، أيّا سلطة، إلاّ و يعكّر مزاجها ما يمكن أن يسجّل عليها من نقاط سوداء، فقد شاءت المخيّلة الروائية أن تكون تشكيلة صور فوتوغرافية سيلتقطها الهاويان للتصوير، الأرميني نوباز و تلميذه التركي، لقلاقل شهدتها أضنة في بواكير القرن العشرين، و أساسا ما شهده الحيّ الأرميني في المدينة من تخريب و فوضى و تقتيل سيتفاقم أمرها، فيما بعد، و ينزلق إلى ما أصبح ينعت في الأدبيّات التاريخية، و كذا في الأرشيفات الحكوميّة الغربيّة، بالمذبحة الأرمينية التي أزهقت أرواح ملايين من الأرمن، ليس فقطّ بمثابة حافزيّة حكائية للجوء نوباز، بمعيّة زوجته أرسينييه و ولده و بنته الصغيرين، إلى دار الأمير و إنّما أيضا مدخلا إلى تشابك مصيري الرّجلين و نهوض العبرة الفادحة لصداقة رائعة، مكلّفة ما في ذلك شكّ، من تلابيب عداوة مزمنة بين شعبين.

[8]– عبد الله إبراهيم: الإمبراطورية، و السرد، و التاريخ.. أمين معلوف و التخيّل التاريخي، مجلة "ثقافات" (البحرينيّة)، ع 25، 2012، ص 150.

[9]– نفسه، ص 151.

لم يشأ نوباز الرّحيل إلى إستانبول كما فعل الكثيرون من أرمن أضنة و تركيا عموما.. بل كان يودّ الرحيل إلى أمريكا، الوجهة الأثيرة للشّتات الأرميني، لكن الأمر كان صعبا، في تضاعيف حيرته تلك ".. همست له زوجته بفكرة الرّحيل إلى لبنان.. كان هناك صهر لها منذ سنوات بانتظار السّفر إلى أمريكا. لمّا استقرّ رأيه على الوجهة اللّبنانية لامه الأب [الأمير.. أب عصيان] على قراره بترك المنزل و الانصراف فقال نوباز: "بيتك يتّسع لي و لكن البلاد هي التي أصبحت تضيق بي" ليجيبه الأب "إذا كانت البلاد تضيق بأعزّ صديق لي، فلماذا تتّسع لي ؟". بهذا تنتصر الصداقة على الضغائن الإثنية و تذوب الفوارق بين أمير من المحتد العثماني يملك ثروات و أراضي، بل و قرى بكاملها و بين مدرّس أرميني أحرق له منزله الذي كان يأويه و يأخذان بزمام هجرتها إلى لبنان، إلى حيث قد تتّسع الأرض لتسامحها و نبالتها، بل و لانصهار دمائها ما دام الأمير سيتزوّج من سيسيل، ابنة نوباز، خمس سنوات بعد ذلك، أي في عام 1914، قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى، خلال حفل فخم ربّما هو الأخير الذي غنّى فيه الأتراك و الأرمن و رقصوا معا في جبل لبنان. و بينما الأمر كذلك كانت قد اندلعت، وقتها، المذابح ضد الأرمن في أضنة و في غيرها من مناطق الأناضول، و دخل المشرق في أطوار حالكة تنذر بزوال الإمبراطورية العثمانية و ولادة بلدان جديدة. في معمّ هذا، و في حمّى الحرب و تأجّج أوارها و تفاقم الحساسيّة العثمانية ضد الأرمن سيعاود نوباز التفكير ثانية في الرّحيل إلى أمريكا مقترحا على صديقه اصطحابه إلى حيث يخوضان مغامرة الحلم الأمريكي لكنّه، و إن ".. لم يكن لامباليا بالسّلالة التي ينحدر منها، و طالما يعيش في أرض المشرق فهو يبقى أميرا و حفيدا لسلطان، و سليل كبار الفاتحين، دون أن يضطرّ للتّباهي بالأمر، أمّا في أمريكا فسوف يصبح عابر سبيل مجهول الهويّة و هذا أمر لم يكن يستطيع أن يطيقه". قد نستوعب التصاقه بالمشرق و نسوّغ له بانتمائه إلى القرن التاسع عشر لكن في مكنتنا أن نردف إلى هذا قصديّة المؤلف من تلك القسمة المقنّنة للمؤهلاّت و المطامح، فضلا عن المصادفات، الشخصية التي قد تحكم على البعض بالقعود و التكاسل.. و قيام حركيّة الشخوص مقام حدود متقاطبة، إذ في مقابل بقاء الأمير في لبنان و موته هناك لن يتباطأ نوباز، مثلا، عن النزوح رفقة عائلته إلى أمريكا، في حين سيلزم سليم، الشقيق الأصغر لعصيان، الخامل و المتقاعس، دائرة المكان اللبناني لتنطلق إيفيت، الشقيقة الكبرى، سميّة الجدّة المعتوهة التي ما هي إلاّ سنوات و تغادر الدنيا، صوب مصر ريثما توغل في هجرتها، هي و زوجها الفلسطيني، المقتلع من أرضه، في اتجاه أوستراليا، بينما كان عصيان منذورا لرحلته الفرنسية.. الرّحلة البؤريّة الفارقة هي الأخرى، كما أضنة في هندسة أو تفضيّة مكانيّة الرواية، و بنته ناديا مرسوما لها أن تعبر، مع زوجها الشّاب، المحيط الأطلسي نحو البرازيل. مع ذلك فالأمير إيّاه يبقى، و بالتّلوين الذي يسبغه عليه ابنه و هو يسرد مأساته على الصحفي - السارد، هو من أرّقته جملة تساؤلات من عيار ".. هل ذلك العصر الذي عاش فيه بشر من كلّ الأجناس و الأعراق، جنبا إلى جنب، في بوّابات المشرق، و تمازجت فيه لغاتهم، هل هو من رواسب الماضي ؟ هل هو تصوّر للغد ؟ هل يعتبر الذين يتشبّثون بهذا الحلم رجعيّين أم رؤيويّين ؟ أعجز عن الإجابة على هذه الأسئلة، و لكن هذا ما كان يؤمن به والدي، كان يؤمن بعالم متجانس يمكن للتّركي و الأرميني أن يعيشا في رحابه في أخوّة (...) فقد وضع نفسه طوال حياته في موقع الأمير التّائق إلى ما لا نهاية و لو لم يكن أميرا لما أصبح ثوريّا.. فكلّ ما يحيد عن الصّراط المستقيم كان يعجبه إذا جاز التعبير: الفنّ المتمرّد و الثورات المتطرّفة و الاختراعات الغريبة و النّزوات و الشّواذ بل و حتى الجنون".

إنّه، أي الأمير، و بأثر من هذه المواصفات المثرية ما كان له سوى أن يحيا، بالملموس، اعتناقاته العابرة للمحلّيات و الانغلاقات المصطنعة و يقترن بأرمينيّة ممهّدا، هكذا، لابنه عصيان أن يقترن، هو التركي.. المسلم، و من غير ما تحرّج كان، بكلارا، النّمساوية.. اليهودية، و ذلك بما يتساوق و اعتناقات أمين معلوف في هذا المضمار. فلقد ".. واجه إدوارد سعيد الفلسطيني ثنائية "إد" و "إدوارد" فلم يقع في شرك قاتل يشبه شرك "دكتور جيكل" و "مستر هايد"، بل دخل عالما متفاعلا متحرّكا لا يكفّ عن الانفتاح المتكافئ بين الأطراف. و قد وجد أمين معلوف ما يواجه به التحدّي نفسه، و ذلك في تأمّله علاقة الثنائية المتعارضة تعارض الانتماء إلى وطن و الانتماء على العولمة، و صاغ تأمّله، نظريّا، في كتابه (الهويّات القاتلة)، و خلاصة هذا التأمّل أنّ الهويّات القاتلة هي الهويّات التي تقوم على التعصّب و التطرّف، و تنطوي على نزعة قبليّة بغيضة، مفرطة في تعصّبها العرقي أو الديني، هدفها إزاحة الآخر و استئصاله. و قد رأى معلوف الأثر المدمّر لهذه الهويّات القاتلة في وطنه لبنان الذي هجره، مضطرّا، سنة 1976 ليستقرّ في فرنسا، هاربا من جحيم الهويّات القاتلة (...) و يبدأ في ممارسة الهويّة المزدوجة فيكمّل دراسة التاريخ، و يدخل إلى عالم الإبداع الروائي و يغدو واحدا من أبرز كتّاب العالم المعاصر، مؤكّدا كلّ مرّة يسأل فيها: هل يشعر أنّه فرنسي أم لبناني، فيجيب بقوله (هذا و ذاك). و تأتي الإجابة لا من قبيل الحرص على التوازن و المساواة، و إنّما من قبيل الإيمان أنّ ما يصنع هويّته هو وعيه العميق بأنّ هويّته أصبحت تقاطعا بين تخوم بلدين و لغتين أو ثلاث و العديد من التقاليد الثقافية، فهو نصف لبناني و نصف فرنسي، و الهويّة المزدوجة، من هذا المنظور، لا تتجزّأ و لا تتصارع حتى و إن توتّرت مكوّناتها"[10].

من المحقّق أن عصيان لم يكن على درجة السلبيّة التي كان عليها أخوه الأصغر، سليم، الخامل و الانتهازي في آن معا، التّاقم على نفسه و أهله نقمته على الحياة، مثلما لم يكن يتحلّى بخبرة و ثقة أخته الكبرى إيفيت في ذاتها، الشيء الذي سيخوّل لها أن تغدو سيّدة البيت، أو تكاد، بعد ممات الأمّ.. أيضا كونه سيعاند منية الأب في أن يصير إلى زعيم كوني يسوّي اختلالات الأرض و ينشئ عصرا مثاليا استبدّ بأحلام الأب مثلما استبدّ بخيال الدونكيشوت بطل ميغيل دي سرفانتيس.. فهو لم يحسّ أبدا نفسه منجذبا إلى مدار سلالة الزعماء التاريخيّين الاستثنائيين، من طراز الإسكندر المقدوني و نابوليون بونابرت و بسمارك و سن يات سن و لينين أو سلفه سليمان القانوني..؛ بقدر ما ستغويه خدمة البشر، على طريقته الهادئة و الخاصة، من خلال امتهان الطّب و مداواة جروح الأبدان، بله الأنفس في المقام الأوّل، و كيف لا و حالة جدّته المعتوهة كانت تثقل على حسّه الرّهيف، و من هنا انشداده إلى مدار آخر تؤثّثه أسامي أطبّاء مرموقين من معدن باستور و بافلوف و فرويد و شاركو..؛ "أنا أريد تغيير العالم.. لكن على طريقتي". لكن هل كان له أن ينال بغيته الإنسانية تلك و يقضّي في مدينة مونبّيلييه الفرنسية سنوات معدودة يؤوب بعدها إلى مشرقه المنهار متأبّطا شهادته المحلوم بها ؟ طبعا لا، فلا ضراوة تاريخ كان يأخذ برقاب غرب في طريقه إلى خراب ذريع، و قبله، و لعلّه الأهمّ في هذا المساق، فلا مخيّلة المؤلّف المفتتنة بالتاريخ كانت لتزأف من حاله و تنجيه، بالتالي، من مآله التراجيدي الأليم، لكن

[10]– جابر عصفور : عن المهجر و المنفى من منظور مختلف، ضمن "الثقافة العربية في المهجر"، ج 1، سلسلة "كتاب العربي"، ع 90، الكويت، أكتوبر 2012، ص 21.

الخلاّق و المفتوح على ما لا ينحدّ من الوقائع و الآفاق، و عليه فها عصيان، و نحن معه كقرّاء، دائما و أبدا، في صميم هوى المؤلّف.. في الذي يشاؤه التاريخ لا الذي تبتغيه الذّوات، و في هذا المنحى، و في قوله، أي أمين معلوف، جوابا على السؤال الآتي: هل تعتقد أنّ مصدر الاستيحاء الروائي من التاريخ سينتهي ذات يوم أم أنّه عالم لانهائي ؟ نلفيه يفصح عن أنّ ".. التاريخ لا ينتهي طبعا، و لو أردت أن أكتب المواضيع التي أهتمّ بها من التاريخ لاحتجت إلى مئات السّنين"[11].

كان من حقّ عصيان أن يقول "كنت أشعر بنفسي خفيفا في ذلك اليوم في مرسيليا، يومي الأول على أرض فرنسا (...) و طمأنت نفسي بأنّني سوف ألتقي امرأة عمّا قريب، و ستكون أجمل من تلك الفتيات الثلاث، بل الأجمل على الإطلاق (...) كنت أملك أصولي و تاريخي و أسراري و مواضع فخر عديدة، و ربّما سحري الخاصّ.. لكن كوني غريبا لم يسبّب لي الحرج بل كنت بالأحرى أشعر بالسعادة لأنّني لست في موطني". و لأنه انوجد، مثلما بطل ميثولوجي إغريقي، في معترك إمبرّياليات و مصالح أروبية كبرى طاحنة، لا يدري بماذا ابتلي بيد أنّه انوجد، بأثر من منزعه الإنساني الرافض للظلم، منضويا إلى المقاومة الفرنسية تحت اسم "باكو" [المأخوذة عن أباكا التي تفيد في اللغة الأرمينيّة "مستقبل"] متيحا، ضمنيّا، لاسم أرميني أن يهاجر هو الآخر و يضرب في الآفاق. هكذا نجده يوضّح، و هو يجيب برتران الذي كان وراء انضوائه إلى المقاومة، ".. أخبرته أنّ النزاع الأزلي بين الألمان و الفرنسيّين لا يثير اهتمامي أو، في مطلق الأحوال، لا يثير ثائرتي، درجت العادة على أن نتعلّم الألمانية و الفرنسية معا، منذ أن اقترن أحد أسلافي بامرأة بافاريّة و نحن نكنّ الاحترام للثقافتين على حدّ سواء (...) فوالدي تركي و والدتي أرمينيّة، و لئن تلاقيا وسط المذابح فذلك لأنّ ما وحّدهما كان هو رفضهما للحقد (...) و قد ورثت ذلك عنهما و هذا هو موطني و لو ظهرت في فرنسا أو في روسيا أو في بلادي لكرهتها بالقدر نفسه". و ما إن وضعت الحرب أوزارها، و التي كافح فيها من موقعه كإنسان مجاف للحقد و الحقارة فكانت بذلك محكّا حقيقيا لعاطفته الإنسانية اللاّمشروطة إلاّ و ".. سيرحل من فرنسا بعد ثمانية أعوام بدون شهادة الطّب و إنّما مكلّلا بهالة القدّيس المتمرّد.. كان ذلك حلم والدي و ليس حلمي"، و مكلّلا، توازيا مع هذا، بحبّه لكلارا التي لن تلبث أن تجسّد علاقته بها محكّا آخر، لا يقلّ جسامة عن الأوّل، لمبدأ قبول الآخر و المجازفة بتقاسم الحياة معه خارج تداعيّات الأصل و الخصوصيّة، بله الهويّة.

و هو يعود إلى لبنان فلن تمتصّ هالة الأبطال التي خفرته ساعة وصوله إلى ميناء بيروت من هول و قساوة ما وجد عليه أباه من انكسار و مهانة جرّاء ما اقترفه أخوه سليم من موبقات، منها التّهريب في انتظار أن يصير إلى رجل أعمال فوزير و قبل أن يردم عصيان، مغتالا إيّاه فعليّا و رمزيّا، في مستشفى المجانين و دافعا به إلى حافّة الهاويّة، ستمسّ السّويداء من كرامة الأمير المتعالي و كبرياءه و تزجّ به، لفترة، في السجن. بالمقابل، و انسجاما مع عامليّة الانتقال و التّرحال الفاعلة في الرواية، و إذ سيترك الأمير لوحدته و انطوائه رفقة أمّه التي ستموت بعد أيام سيلقى جدّه نوباز و قد هاجر إلى أمريكا،

[11]– شاكر نوري : منفى اللغة، حوارات مع الأدباء الفرانكوفونيّين، سلسلة "كتاب دبيّ الثقافية"، ع 48، دبيّ، أبريل 2011، ص 269.

كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، صحبة زوجته و ابنه، المدرّس الجامعي، أرام.. أمّا أخته إيفيت فقد تزوّجت من فلسطيني، من حيفا، كان يعمل في مصرف بريطاني بلبنان قبل أن يعيّن بفرعه في القاهرة، و ارتحلت إلى مصر، إلى حين رحيلها إلى أوستراليا. غير أنّ العنصر الوقائعي الأقوى في هذا الموقف لهو مرور كلارا ببيروت و هي في طريقها إلى حيفا.. فهي ".. لم تكن متأكّدة أنّها تريد العيش في فلسطين، و قد جاءت لترافق خالها العجوز" استيفان، الوحيد الذي نجا من أفران الإبادة من بين أهلها، و ".. عندما عثرت عليه عبر جمعيّة تهتمّ بالمعتقلين سألته ماذا ينوي أن يفعل الآن. لم يشأ العودة إلى غراتز، بل أراد أن يسافر إلى فلسطين، و ها أنا أقوده إلى هناك". و من فلسطين كاتبته لمرّات محدّثة إيّاه، هي من حاربت برفقته إيديولوجيا الحقد و الحقارة، عن "سوء تفاهم مأساوي يجب العمل على تبديده (...) لم تكن تقبل أن يتصادم شعبان كان هتلر يضمر لهما الكراهية، و ذلك غداة هزيمة النازية نفسها، و يصل بهما الأمر إلى درجة الاقتتال و يكون كلّ منهما مقتنعا بأنّه يدافع عن حقّه المشروع و يعتبر نفسه ضحيّة"، مستعيدة، بهذا، تحليل جان بول سارتر للصراع العربي - الإسرائيلي و توصيفه، كما نعلم، بكونه نزاعا بين عدالتين. في الخلاصة ".. كانت كلارا تبدو متأثّرة عميقا بالنزاع الذي يدور حولها و تقول بأنها مصمّمة على النضال بكلّ قواها لتجاوزه (...) أخبرتني برصانة أنّها انضمّت إلى مجموعة من المناضلين تدعى اتّحاد العمّال العرب و اليهود في فلسطين، و أسهبت في شرح أهدافهم و كانوا لاشك مفعمين بالنّوايا الحسنة، و بالرغم من عددهم القليل.. جمعيّتهم لم تكن سوى مجموعة صغيرة شجاعة، كانوا يأملون تغيير مجرى التاريخ".

فهل كان في مقدور الحبّ مشاكسة التاريخ، حتى لا نقول مغالبته ؟ كان ذلك هو الرّهان المتبقّي لذاتين جمعها التاريخ و الحبّ، سواء بسواء، و قرّرا في عزّ الشّنآن التاريخي الذي يرين على فلسطين أن يجترحا ممكنا رمزيا للالتفاف على اعتنافات واقع أعمى لا يرحم. كذا قرّرا التنصّل من انتمائيهما، من عقيدتيهما، و السّفر إلى فرنسا، و اللقاء في باريس يوم 20 يونيو في الساعة 12 على رصيف السّاعة، تيمّنا بعاشقين كانا التقيا هناك قبل الحرب على ضفاف نهر السّين.. و هو المكان الذي سيشهد لقاءهما عند نهاية الرواية.. فالجوهري هو ما يجمع بينهما من قيم مشتركة و من حبّ أمّا الشّكليات فلا يعتدّ بها و من ذلك أن يتكفّل صديقهما أيام المقاومة بتزوير أوراقهما الثّبوتية و أن يقوم برتران بدور شاهده هو و دانييل، زوجة جاك، بدور شاهدتها هي.. و بعده لا بأس في العودة إلى بيروت و تدبير حفل باذخ في منزل العائلة ستعزف فيه فرقتان موسيقيّتان، واحدة شرقية و الأخرى غربية، و يحضره، و يالإشاريّة، صهره الفلسطيني محمود الكرملي، زوج أخته إيفيت و خال كلارا استيفان. إنّ الحبّ يظلّ، مهما بلغ من تجذّر نقاوة و إيثار، أهون من سطوة التاريخ و عجرفته.. من هنا، و هما في غمرة حفل زواجهما الباذخ، سيقول عصيان: "نظرت إلى كلارا، كان كلّ منّا يمسك بيد الآخر كما لو أردنا التصدّي بصورة أفضل للعاصفة الوشيكة" التي لن تكون غير تعقّد الوضع في فلسطين و تطوّر الأحداث إلى تقسيمها بين العرب و اليهود، فقيام الحرب العربية - الإسرائيلية و انسياق مشرق خرافي إلى لجّة غليانات و ارتجاجات ستمسّ الأوطان و الجموع بقدر ما ستخترق آثارها و شواظّها الأفئدة و الأرواح. لقد مات الأمير المكلوم عام 1948 في حين أصبح سليم من سادة المرحلة، أمّا هو فلم يجد مناصا من الإقرار، و بمرارة، ب ".. أنّني كنت أنهار و بالرغم من ذلك مضيت قدما نحو الهاويّة" انهيار مشرق برمّته و مضيّه قدما نحو الهاوية. إنّ هاويّته لسوف تتّخذ إهاب

عزلة طبّية قاتلة لمدى سنوات لن ينتشله منها سوى التاريخ ، لمرّة أخرى، عشيّة الحرب الأهليّة اللبنانية في حين سيطوّح نفس التاريخ بكلارا إلى ضنى المجهول و مشاقّه.. لكنّ المغنم الثمين سيكون هو ناديا التي اقتدرا على استراقها من كلوحة تاريخ جلف.. ناديا التي تبقى ".. مسلمة بالنسبة للمسلمين و يهودية بالنسبة لليهود.. أمّا هي فرغم إمكانية اختيارها بين الاثنين فقد اختارتهما معا، نعم الاثنين معا كما اختارت أشياء أخرى، و كانت مخورة بكلّ السّلالات التي أفضت إليها، معترّة بدروب الفتوحات أو الهروب القادمة من آسيا الوسطى و الأناضول و أوكرانيا و شبه الجزيرة العربية و بّسارابيا و أرمينيا و بافاريا.. و لم تشأ انتقاء قطرات دمها و لا أجزاء روحها".

لنقل لقد انتصرت، رمزيّا و هو ما يلزم الاعتداد به في الفنون و الآداب و كافّة الأشكال التعبيرية، هشاشة مقوّم إنساني جوهري هو الحبّ على مكر تاريخ يخبط خبط عشواء و استقامت ناديا، بالتالي، علامة مشعّة للأفق المتسامي الذي ما انفكّ أمين معلوف مستمسكا به كمعبر، لا غنى عنه، للإنسانية نحو مشترطها الوجودي الأحقّ و الأجدر، و تناغما، دائما، مع هذا المتطلّب المركزي في تفكيره و إبداعه، و خوفه المكين من انزلاقات الانغلاق و اللاّتسامح ممّا شان الماضي و يشين الحاضر الإنسانيّين كليهما و قد يستفحل في القادم من الأزمنة، و ذلك بصرف النّظر عن العوامل و المسبّبات، فعن سؤال بليغ مقتضاه: في كتابك (الهويّات القاتلة) تطرّقت إلى مسألة تعتبرها مركزية، و هي مسألة الهويّة معتبرا أنّ الإنسان في النهاية هو محصّلة مجموعات هويّات، و في (خلل العالم) تعود إلى الهويّة و تقول إنّ البلدان العربية - الإسلامية تعاني أكثر من غيرها ممّا تسمّيه التحوّل من الإيديولوجيا إلى الهوية كعامل تفريق بين الناس.. يجيب ".. لغاية انهيار جدار برلين كان النّقاش في العالم بشكل عامّ يدور حول الشيوعية، إمّا مع الشيوعية أو ضدّها، إمّا مع الماركسية أو ضدّها، كان هذا هو الجوّ الفكري في العالم. بعد انهيار النظام السّوفييتي فقد هذا النّقاش أهميّته و لم يحلّ محلّه نقاش آخر، و عمليّا اعتبر كثيرون ممّن كانوا يشاركون في هذا النّقاش أنّ كلّ هذا الجدل لا مبرّر له. المهمّ، عمليّا، هو الانتماء (...) انهارت الإيديولوجيا فصار الاهتمام ينصبّ على الانتماء، و المسألة لا تقتصر على الأفراد، بل هي تشمل الدّول (...) لا يمكنك، مثلا، أن تطلب من شخص بروتستاني و آخر أرثوذكسي أن يناقشا مسألة أيّ مجتمع يريدان، النّقاش، في مثل هذه الحالة، غير ممكن، و التّأكيد على الانتماءات الدينية يزداد أكثر فأكثر في كافّة المجتمعات، و صار الناس يعيشون هذه الانتماءات بتوتّر و بشكل مرضيّ، و بالتالي ازداد النّقاش بين الناس صعوبة، و هذا ما يجعلنا نقول إنّ نهاية صراع الإيديولوجيات أدّت عمليّا إلى تصاعد الانتماءات"[12].

[12]– بعد صدور كتابه الجديد "خلل العالم".. أمين معلوف: الحضارة الغربية في انغلاق كبير و عليها أن تتغيّر، حاوره: وليد شميط، جريدة "الشرق الأوسط" اللّندنية، ع 11118، الخميس 7 ماي 2009، ص 20.